من ركل القطة؟!

قبل أن تجيب عن السؤال.. اسمع القصة كاملة:

كان يعمل سكرتيراً لمدير سيىء الأخلاق.. لا يطبق مهارة واحدة من مهارات التعامل مع الناس.. كان هذا المدير يراكم الأعمال على نفسه.. ويحملها ما لا تطيق.. صاح بسكرتيره يوماً.. فدخل ووقف بين يديه..

- قال: سَمْ.. تفضل؟
- صرخ به: اتصلت بهاتف مكتبك.. ولم ترد..

- قال: كنت في المكتب المجاور.. آسف..
- قال بضجر: كل مرة آسف.. آسف.. خذ هذه الأوراق.. ناولها لرئيس قسم الصيانة.. وعد بسرعة..

مضى السكرتير متضجراً.. وألقاها على مكتب رئيس قسم الصيانة..

- وقال: لا تؤخرها علينا..
- تضايق الرجل من أسلوب السكرتير وقال: طيب ضعها بأسلوب مناسب..

- قال: مناسب.. غير مناسب.. المهم خلصها بسرعة..

تشاتما.. حتى ارتفعت أصواتهما.. ومضى السكرتير إلى مكتبه..

بعد ساعتين أقبل أحد الموظفين الصغار في الصيانة إلى رئيسه..

- وقال: سأذهب لأخذ أولادي من المدرسة وأعود.
- صرخ الرئيس: وأنت كل يوم تخرج..

- قال: هذا حالي من عشر سنوات.. أول مرة تعترض عليَّ..
- قال: أنت ما يصلح معك إلا العين الحمراء.. ارجع لمكتبك..

مضى المسكين إلى مكتبه متحيراً من هذا الأسلوب.. وصار يجري الاتصالات يبحث عمن يوصل أولاده من المدرسة للبيت.. حتى طال وقوفهم في الشمس.. وتولى أحد المدرسين إيصالهم..

عاد هذا الموظف إلى بيته غاضباً.. فأقبل إليه ولده الصغير معه لعبة..

- وقال: بابا.. هذه أعطانيها المدرس لأنني...

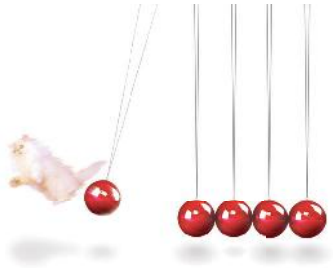

- صاح به الأب: اذهب لأمك.. ودفعه بيده..

مضى الطفل باكياً يمشي إلى أمه.. فأقبلت إليه قطته الجميلة تتمسح برجليه كالعادة.. فركلها الطفل برجله فضربت بالجدار..

السؤال: من ركل القطة؟

أظنك.. تبتسم.. وتقول: المدير..

صحيح المدير.. لأنه ضغط نفسه حتى انفجر..

لماذا لا نتعلم فن توزيع الأدوار.. والأشياء التي لا نقدر عليها نقول بكل شجاعة.. هذه ليست في أيدينا.. لا نقدر.. خاصة أنك إذا ضغطت نفسك فإن تصرفاتك قد يتعدى ضررها إلى أقوام لم ليكونوا طرفاً في المشكلة أصلاً.. وانتبه أن يستثيرك الآخرون.. ويحرجوك فتضطر لإعطاء وعود.. وقد لا تستطيع تنفيذها..

انتقل معي أن شئت إلى المدينة.. وانظر إلى رسول الله ﷺ وقد جلس في مجلسه المبارك.. بعدما انتشر الدين.. وَوُحِّد رب العالمين.. جعل رؤساء القبائل يأتون إليه مذعنين مؤمنين.. ومنهم من كانوا يأتون صاغرين حاقدين.. وفي يوم أقبل رئيس من رؤساء العرب.. له في قومه مُلْك ومنعة..

أقبل (عامر بن الطفيل)..وكان قومه يقولون له لما رأوا انتشار الإسلام:

- يا (عامر) إن الناس قد أسلموا فأسلم..

وكان متكبراً متغطرساً.. فكان يقول لهم:

- والله لقد كنت أقسمت ألا أموت حتى تملِّكني العربَ عليهم وتتبعَ عقبي.. فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش!!

ثم لما رأى تمكن الإسلام.. وانصياع الناس لرسول الله ﷺ.. ركب ناقته مع بعض أصحابه ومضى إلى رسول الله ﷺ..

دخل المسجد على رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه الكرام.. فلما وقف بين يدي النبي ﷺ قال:

- يا (محمد) خالني.. أي قف معي على انفراد..

وكان ﷺ حذراً من أمثال هؤلاء..

- فقال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده..
- فقال: يا (محمد) خالني..

فأبى النبي ﷺ..

فلا زال يكرر: يا (محمد) قُم معي أكلمك.. يا (محمد) قُم معي أكلمك..

حتى قام معه رسول الله ﷺ.. فاجترّ (عامر) إليه أحد أصحابه اسمه (إربد) وكان قد اتفق معه على قتل رسول الله ﷺ.. وقال: إني سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فاضربه بالسيف..

فجعل (إربد) يده على سيفه واستعد.. فانفرد الاثنان إلى الجدار.. ووقف معهما رسول الله ﷺ يكلِّم (عامراً).. وقبض (أربد) بيده على السيف.. فكلما أراد أن يسله يبست يده.. فلم يستطع سلَّ السيف.. وجعل (عامر) يشاغل رسول الله ﷺ.. وينظر إلى (إربد).. و(إربد) جامد لا يتحرك.. فالتفت ﷺ فرأى (أربد) وما يصنع..

- فقال: يا (عامر بن الطفيل).. أسلم..
- فقال (عامر): يا (محمد) ما تجعل لي إن أسلمت؟
- فقال ﷺ : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم..
- قال (عامر): أتجعل لي الملك من بعدك إن أسلمت؟

لما يشأ النبي ﷺ أن يعد (عامراً) بوعد قد لا يتحقق.. فكان صريحاً جريئاً معه..

- وقال: ليس ذلك لك ولا لقومك..
- فخفف (عامر) الطلب قليلاً.. وقال: أُسلِم على أن لي الوبر ولك المدر.. أي أكون ملكاً على البادية وأنت على الحاضرة..

فإذا به ﷺ.. أيضاً لا يريد أن يلزم نفسه بوعود.. لا يدري تتحقق أم لا..

- فقال ﷺ: لا..

عندها غضب (عامر) وتغير وجهه.. وصاح بأعلى صوته:

- والله يـا (محمد).. لأملأنها عليك خيلاً جـرداً.. ورجالاً مرداً.. ولأربطن بكل نخلة فرساً.. ولأغزونك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء..

ثـم خرج يزبد ويرعد.. فجعل ﷺ ينظر إليه.. ثم رفع ﷺ بصره إلى السـماء وقال: اللهم اكفني (عامراً).. واهْدِ قومه..

خـرج (عامر) مع أصحابه حتى إذا فارق المدينة متوجهاً إلى ديار قومه عازماً علـى تجهيز جيش لغزو المدينة.. تعب من المسـير.. وظهـر عليه الإرهاق واحتاج إلى مكان يرتاح فيه..

فصـادف امرأة من قومه يقال لها (سـلولية) وكانـت في خيمة لها.. وكانت امرأة فاجرة.. يذمها الناس ويتهمون من دخل بيتها بالفجور والسّـوء.. فلم يجد مأوى آخر..

فنـزل عن فرسـه مضطراً ونام في بيتها.. فاخذته غُـدَّة وانتفاخ في حلقه كما يظهر في أعناق الإبل فيقتُلها.. ففزع واضطرب.. وجعل يتلمس الورم ويقول: غدة كغدة البعير.. وموت في بيت (سلولية!!) أي: لا موت يشرّف.. ولا مكان يشرّف..

كان يتمنى أن يموت في ساحة قتال.. بسيوف الأبطال.. فإذا به يموت بمرض حيوانات.. في بيت فاجرة!! تباً.. للذل والمهانة..

فأخـذ يصيـح بأصحابه: قربوا فرسـي.. فقربـوه.. فوثب على فرسـه.. وأخذ رمحـه.. وصار يجول به الفرس.. وهو يصيح من شـدة الألم.. ويتحسـس عنقه بيده ويقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية..

فلم تزل تلك حالة يدور به فرسه.. حتى سقط عن فرسه ميتاً..

تركه أصحابه.. ورجعوا إلى قومهم.. فلما دخلوا ديارهم.. أقبل الناس إلى (إربد) يسألونه:

- ما وراءك يا (أربد)؟

- فقال: لا شيء.. والله لقد دعانا محمد إلى عبادة شيء.. لوددت لو أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله.. سبحان الله.. تعالى الله.. ما أجرأه على الله!!..

فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له ليبيعه.. فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما..

وأنزل الله عز وجل في حال (عامر) و(أربد):

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾[1]

نعم.. لا تلتزم إلا بما تثق أنه يمكنك الوفاء به.. بعون الله..

(١) الرعد: ٨ - ١٤

قام ﷺ مرة خطيباً في الناس.. فتكلم عن الآخرة وأحوالها.. ثم رفع صوته قائلاً: يا!!! فاطمة بنت محمد.. سليني من مالي ما شئت.. فإني لا أغني عنك من الله شيئاً..

وأخيراً.. مع التأكيد على أهمية عدم الالتزام بالشيء إلا وأنت قادر عليه.. إلا أنه ينبغي عند الاعتذار أن نستعمل أسلوباً ذكياً..

فمثلاً: جاء إليك رجل لتبحث لأخيه عن وظيفة.. لأن أباك مسئول كبير.. أو أخاك.. أو أنت .. ووجدت أنك لا تستطيع خدمته.. فاعتذر بأسلوب يحفظ ماء وجهه ويجعله يشعر أنك تشاركه الهم

.. قل مثلاً:

يا فلان.. أنا أشعر بمعاناتك.. وأخوك أعتبره أخي.. ولئن كان إخواني خمسة فهو السادس.. لكن المشكلة أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً الآن.. فاعذرني.. وأسأل الله أن يوفق أخاك.. مع ابتسامة لطيفة.. وتعبيرات وجه مناسبة.. فكأنك بهذا الرد الجميل قضيت له ما يريد.. أليس كذلك..؟

التواضع

كنت في مجلس فيه عدد من الوجهاء.. فتحدث أحد (من رآه استغنى)! وقال في أثناء حديثه: ومررت بأحد العمال.. فمدّ يده ليصافحني.. فترددتُ ثم مددت يدي وصافحته.. ثم قال بشيء من الغرور: مع أني لا أعطي يدي لأي أحد!!

ما شاء الله يقول: لا أعطي يدي لأي أحد..

أما رسول الله ﷺ فكانت الأَمَة المملوكة الضعيفة.. تلقاه في وسط الطريق فتشتكي إليه من ظلم أهلها.. أو كثرة شغلها.. فينطلق معها إلى أهلها ليشفع لها.. وكان يقول: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر..

كما سمعنا الناس يرددون: يا أخي.. فلان متكبر.. فلان «شايف نفسه»..

ويبغضونه بسبب هذا الخلق ويذمونه.. وتسأله: لماذا لم تستعن بجارك في كذا؟ فيقول: فلان متكبر علينا.. ما يعطينا وجه!!

آآآآه كم هم مبغضون أولئك الذين يتكبرون على الناس.. ويعاملونهم باستعلاء.. كم هو منبوذ.. ذاك الذي يطغى أن رآه استغنى.. ذاك الذي يصعِّر خدَّه للناس ويمشي في الأرض مرحاً.. ذاك الذي يتكبر على العمال.. والخدام.. والفقراء.. يتكبر عن محادثتهم.. ومصافحتهم.. ومجالستهم..

لما دخل ﷺ مكة فاتحاً.. جعل يمر بطرقات مكة.. التي طالما أوذي فيها.. واستُهزيء به.. كم سمع في طرقاتها.. يا مجنون.. ساحر.. كاهن.. كذاب.. وهو اليوم يدخلها قائداً عزيزاً.. مُمَكناً.. قد أذل الله أهلها بين يديه.. فكيف كان شعوره وهو داخل؟

قال (عبدالله بن أبي بكر) - رضي الله عنهما -:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى (ذي طوى).. وقف على راحلته معتجراً بقطعة بُـرْدٍ حمراء.. وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله.. حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح.. حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليكاد يمس واسطة الرحل..

وقال أنس رضي الله عنه: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على راحلته متخشعاً..

وقال ابن مسعود: أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فكلمه في شيء.. فأخذته الرعدة.. فقال ﷺ: هون عليك.. فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد (اللحم المجفف)..

وكان ﷺ يقول: أجلس كما يجلس العبد.. وآكل كما يأكل العبد..

نعم..

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

العبادة الخفية

قبل عشر سنوات.. في أيام ربيع.. وفي ليلة باردة كنت في البر مع أصدقاء.. تعطلت إحدى السيارات.. فاضطررنا إلى المبيت في العراء..

أذكر أنّا أشعلنا ناراً تحلقنا حولها.. وما أجمل أحاديث الشتاء في دفء النار..

طال مجلسنا فلاحظت أحد الإخوة انسل من بيننا.. كان رجلاً صالحاً.. كانت له عبادات خفية.. كنت أراه يتوجه إلى صلاة الجمعة مبكراً..بل أحياناً وباب الجامع لم يفتح بعد..!!

قام وأخذ إناء من ماء.. ظننت أنه ذهب ليقضي حاجته.. أبطأ علينا.. فقمت أترقبه.. فرأيته بعيداً عنا.. قد لفّ جسده برداء من شدة البرد وهو ساجد على التراب..في ظلمة الليل.. وحده.. يتملق ربه ويتحبب إليه..

كان واضحاً أنه يحب الله تعالى.. وأحسب أن الله يحبُّه أيضاً.. أيقنت أن لهذه العبادة الخفية.. عِزاً في الدنيا قبل الآخرة..

مضت السنوات.. وأعرفه اليوم .. قد وضع الله له القبول في الأرض.. له مشاركات في الدعوة وهداية الناس.. إذا مشى في السوق أو المسجد.. رأيت الصغار قبل الكبار يتسابقون إليه.. مصافحين.. ومحبين..

كم يتمنى الكثيرون من تجار.. وأمراء .. ومشهورين.. أن ينالوا في قلوب الناس من المحبة مثل ما نال.. ولكن هيهاااات..

أأبيت سهران الدجى. وتبيته نوماً وتبغي بعد ذاك لحاقي

نعم.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[١] .. أي يجعل الله لهم محبة في قلوب الخلق..

إذا أحبك الله جعل لك القبول في الأرض.. قال ﷺ:

إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل.. فقال: إني قد أحببت فلاناً فأحبه.. فيحبه جبريل.. ثم يُنادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه.. فيحبّه أهل السماء.. قال: ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض.. فذلك قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾[٢]..

وإذا أبغض الله عبداً.. نادى جبريل: إني أبغضت فلاناً فأبغضه.. فيبغضه جبريل ثم يُنادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضه.. فيبغضه أهل السماء.. ثم تنزل له البغضاء في الأرض..[٣]

آآآه.. ما أجمل أن تعيش على الأرض .. تأكل وتشرب. وتنام.. والله يُنادي باسمك في السماء (إني أحب فلاناً فأحبوه)..

قال (الزبير بن العوام) رضي الله عنه: من استطاع منكم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل..

والعبادة الخفية أنواع.. منها:

- الحفاظ على صلاة الليل.. ولو ركعة واحدة وتراً كل ليلة.. تصليها بعد العشاء مباشرة.. أو قبل أن تنام.. أو قبل الفجر.. لتكتب عند الله من قُوَّام الليل..

قال ﷺ: إن الله وتر يحب الوتر.. فأوتروا يا أهل القرآن..

(١) مريم: ٩٦
(٢) مريم: ٩٦
(٣) رواه البخاري ومسلم، واللفظ له

- ومنهـا: السـعي في الإصلاح بـين الناس.. بين الزمـلاء المتخاصمين.. بين الجيران .. بين الزوجين..

قـال ﷺ: ألا أخبركم بأفضـل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟

قالوا: بلى..

قال: إصلاح ذات البين.. وفساد ذات البين هي الحالقة..[١]

- ومنهـا: الإكثار من ذكر الله.. فإن من أحب شـيئاً أكثـر من ذكره.. وفي الحديث.. قال ﷺ:

ألا أنبئكـم بخـير أعمالكم.. وأزكاها عنـد مليككم.. وأرفعهـا في درجاتكم.. وخـير لكـم من إعطـاء الذهب والـورق.. وخير لكـم من أن تلقـوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم..؟

قالوا: بلى.. وما ذاك يا رسول الله؟

قال: ذكر الله عز وجل..[٢]

- ومنها: صدقة السر.. فصدقة السرّ تُطفىء غضب الرب..

كان (أبو بكر) رضي الله عنه إذا صلى الفجر خرج إلى الصحراء.. فاحتبس فيها شـيئاً يسـيراً.. ثم عـاد إلى المدينة.. فعجب (عمر) رضي الله عنه من خروجـه.. فتبعه يوماً خفية بعدمـا صلى الفجر.. فـإذا (أبوبكر) يخرج من المدينة ويأتـي على خيمة قديمة في الصحـراء.. فاختبـأ له (عمر) خلف صخـرة.. فلبث أبو بكر في الخيمة شـيئاً يسيراً.. ثم خرج.. فخرج (عمر) من وراء صخرته ودخل الخيمة.. فإذا فيها امرأة ضعيفة عمياء.. وعندها صبية صغار..

(١) رواه أحمد وغيره (صحيح).

(٢) رواه أحمد والترمذي وغيرهما، صحيح.

- فسألها (عمر): من هذا الذي يأتيكم..
- فقالت: لا أعرفه.. هذا رجل من المسلمين.. يأتينا كل صباح.. منذ كذا وكذا..
- قال: فماذا يفعل؟
- قالت: يكنس بيتنا.. ويعجن عجيننا.. ويحلب داجننا.. ثم يخرج..

فخرج (عمر) وهو يقول: لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر.. لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر..

ولم يكن (عمر) رضي الله عنه بعيداً في تعبده وإخلاصه عن (أبي بكر).. فقد رآه (طلحة بن عبيد الله).. خرج في سواد الليل.. فدخل بيتاً ثم خرج منه ودخل بيتاً آخر.. فعجب (طلحة).. ماذا يفعل (عمر) في هذه البيوت!!

فلما أصبح (طلحة) ذهب إلى البيت الأول.. فإذا عجوز عمياء مقعدة..

- فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟
- قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا.. ويأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى..

فخرج (طلحة) وهو يقول: ثكلتك أمك يا (طلحة).. أعثرات (عمر) تتبع؟

وخرج (عمر) مرة رضي الله عنه إلى ضواحي المدينة.. فإذا برجل عابر سبيل نازل وسط الطريق.. وقد نصب خيمة قديمة.. وقعد عند بابها.. مضطرب الحال..

- فسأله (عمر): من الرجل؟
- قال: من أهل البادية.. جئت إلى أمير المؤمنين أُصيبُ من فضله..

فسمع عمر أنين امرأة داخل الخيمة.. فسأله عنه؟

فقال الرجل: انطلق رحمك الله لحاجتك..

- قال عمر: هذا من حاجتي..
- فقال: امرأتي في الطلق - يعني تلد - وليس عندي مال ولا طعام ولا أحد ..

فرجع عمر إلى بيته سريعاً.. فقال: لإمرأته (أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب) - رضي الله عنها وعن أبيها-:

- هل لك في خير ساقه الله إليك؟
- قالت: وما ذاك؟!

فأخبرها بخبر الرجل.. فحملت امرأته معها متاعاً.. وحمل هو جراباً فيه طعام.. وقِدْراً وحطباً.. ومضى إلى الرجل.. ودخلت امرأة عمر على المرأة في خيمتها.. وقعد هو عند الرجل.. فأشعل النار وأخذ ينفخ الحطب.. ويصنع الطعام.. والدخان يتخلل لحيته.. والرجل قاعد ينظر إليه .. فبينما هو على ذلك.. إذ صاحت امرأته من داخل الخيمة.. يا أمير المؤمنين.. بشر صاحبك بغلام.. فلما سمع الرجل.. كلمة «أمير المؤمنين».. فزع وقال:

- أنت الخليفة (عمر بن الخطاب)..
- قال: نعم..

فاضطرب الرجل.. وجعل يتنحّى عن (عمر)..

فقال له (عمر): ابقَ مكانك..

ثم حمل (عمر) القدر.. وقربه إلى الخيمة وصاح بامرأته (أم كلثوم).. أشبعيها..

فأكلت المرأة من الطعام.. ثم أخرجت باقي الطعام خارج الخيمة.. فقام (عمر) فأخذه فوضعه بين يدي الرجل..

وقال له: كُلّ.. فإنك قد سهرت من الليل.. ثم نادى (عمر) امرأته فخرجت إليه.. فقال للرجل: إذا كان من الغد.. فأتنا نأمر لك بما يصلحك..

فرحم الله (عمر).. تواضع .. وعبادة خفية.. والغاية كسب محبة الله..

وكان (علي بن الحسين) - رضي الله عنهما - يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق بها.. ويقول: إن صدقة السر تطفىء غضب الرب.. فلما مات وجدوا في ظهره آثار سواد.. فقالوا: هذا ظهر حمَّال.. وما علمناه اشتغل حمالاً.. فانقطع الطعام عن مائة بيت في المدينة.. من بيوت الأرامل والأيتام.. كان يأتيهم طعامهم بالليل.. لا يدرون من يحضره إليهم.. فعلموا أنه هو الذي كان يحمل الطعام إلى بيوتهم بالليل وينفق عليهم..

وصام أحد السلف عشرين سنة.. يصوم يوماً ويفطر يوماً.. وأهله لا يدرون عنه.. كان له دكان يخرج إليه إذا طلعت الشمس ويأخذ معه فطوره وغداءه.. فإذا كان يوم صومه تصدق بالطعام.. وإذا كان يوم فطره أكله.. فإذا غربت الشمس.. رجع إلى أهله وتعشى معهم..

نعم.. كانوا يستشعرون العبودية لله في جميع أحوالهم.. هم المتقون.. والله يقول: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[1] ..

فاطلب محبة الخالق.. وهو يتكفل بزرع محبتك في قلوب خلقه..

(١) النبأ: ٣١ - ٣٦

أخرجهم من الحفرة

ألم يقع مرة أن أحرجك شخص في مجلس عام بكلمة جارحة.. أو ربما سخر منك.. بأي شيء وإن كان صغيراً.. بلباسك أو كلامك.. أو أسلوبك.. فظهر الإحراج على وجهك.. وامتقع لونك.. فدافع عنك شخص ما.. فشعرت بامتنان عظيم له.. لأنه كأنما أمسك بطرف ثوبك عندما دفعك غيرك إلى هاوية..

مارس هذه المهارة مع الآخرين.. وسترى لها تأثيراً ساحراً..

لو دخلت على شخص وأقبل ولده يحمل طبقاً في طعام.. لكنه استعجل قليلاً .. فكاد أن يقع الطبق على الأرض..

فانطلق الأب عليه ثائراً.. يصرخ به قائلاً: لماذا العجلة؟ كم مرة أعلمك؟..

فاحمرَّ وجه الولد واصفرَّ.. فقلت أنت: لا .. بل فلان بطل.. رجُل.. ما شاء الله عليه يحمل كل هذا لوحده.. ولعله استعجل لأن فيه أغراضاً أخرى أيضاً..

الله أيُّ امتنان سيشعر به الغلام لك..

هذا مع الصغار.. فما بالك مع الكبار..

لو أثنيت على زميل في اجتماع.. بعدما صبوا عليه وابلاً من اللوم.. أو اثنيت على أحد إخوانك.. بعدما انكب أفراد الأسرة عليه معاتبين..

شاب أحرجه شخص بسؤال أمام الناس: بَشِّرْ يا فلان.. كم نسبتك في الجامعة؟! بالله عليك.. هل هذا سؤال يسأله عاقل أمام الناس؟!! فانقلب وجه الشاب متلوناً.. فأنقذته قائلاً بلطف: لماذا يا أبا فلان تسأله عن نتيجته في الجامعة؟ هل ستزوجه؟!! أو عندك وظيفة له؟ أو... فضحكوا ونُسي السؤال..

أو: لـو عاتبـه علـى دنـوِّ معدله الدراسـي..

فقلت: يا أخي لا تلمه.. تخصصه صعب.. لكن سيكون أفضل في الفصل القادم إن شاء الله..

كسب محبة الناس فرص يقتنصها الأذكياء..

إذا هبـت رياحـك فاغتنمهـا فـإن لـكل خافقـة سـكون

كان (عبدالله بن مسعود) رضي الله عنه.. يمشي مع النبي ﷺ.. فمرا بشجرة فأمره النبي أن يصعدها ويحتزَّ له عوداً يتسوك به.. فرقى (ابن مسعود) وكان خفيفاً.. نحيل الجسم.. فأخذ يعالج العود لقطعه.. فأتت الريح فحركت ثوبه وكشفت ساقيه.. فإذا هما ساقان دقيقتان صغيرتان.. فضحك القوم من دقة ساقيه..

فقال النبي ﷺ: ممّ تضحكون؟!.. من دقة ساقيه؟! والذي نفسي بيده إنهما أثقل في الميزان من أُحد..[1]

فماذا سيكون شعور (عبدالله بن مسعود).. بعدما ضحك الناس منه.. ثم دافع عنه النبي ﷺ وأثنى عليه..

(١) رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما (صحيح).

الاهتمام بالمظهر

كان (أبو حنيفة) جالساً يوماً بين طلابه في المسجد يُدرِّس.. وكان به ألم في ركبته وقد مدَّ رجله.. واتكأ على جدار..

في هذه الأثناء.. أقبل رجل عليه لباس حسن.. وعمامة حسنة.. ومظهر مهيب.. كان وقوراً في مشيته.. جليلاً في خطوته.. أفسح له الطلاب حتى جلس بجانب (أبي حنيفة).. فلما رأى (أبو حنيفة) مظهره.. ورزانته.. ورتابة هيئته.. استحى من طريقة جلسته وثنى رجله.. وتحمل ألم ركبته لأجله..

استمر (أبو حنيفة) في درسه والرجل يسمع.. فلما انتهى من الدرس.. بدأ الطلاب يسألون.. فرفع ذلك الرجل يده ليسأل.. التفت إليه الشيخ..

- وقال: ما سؤالك؟
- فقال: يا شيخ.. متى وقت صلاة المغرب؟
- قال: إذا غربت الشمس..!!
- قال: وإذا جاء الليل والشمس لم تغرب.. فماذا نفعل؟!
- فقال (أبو حنيفة): آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه..

ومد رجله كما كانت.. وسكت عن هذا السؤال المتناقض!!.. إذ كيف يأتي الليل والشمس لم تغرب؟!!

يقولون إن النظرة الأولى إليك تكون في ذهن المقابل أكثر من ٧٠٪ من تصوره عنك.. ويبدو أنه عند التأمل ستجد أن النظرة الأولى تكون أكثر من ٩٥٪ عنك.. حتى تتكلم.. أو تعرِّف بنفسك فتزيد النسبة عند ذلك أو تقلّ..

ولـو مشـيت في ممر في مستشـفى أو شـركة وبجانبك شـخص عليه ثياب حسـنة.. وعليه وقار في مشـيته.. لرأيت أنك – ربما لا شـعورياً – إذا وصلت إلى باب في الممر التفتّ إليه وقلت له: تفضل.. طال عمرك!!

ولو ركبت سـيارة أحد أصدقائـك فرأيتها فوضى.. هنا فـردة حذاء مرمي.. وهنا ورق شـاورما.. وهنا منديل.. وأشرطة كاسيت متناثرة.. لكونت فكرة عن الشخص مباشرة أنه فوضوي.. غير مبال بالترتيب..

وكذلـك في لباس النـاس.. ومظهرهم العام.. والذي أعنيـه هنا هو الاهتمام بالمظهر لا الاسراف في اللباس أو السيارة.. أو الأثاث.. أو غيرها..

كان رسول الله ﷺ يعتني بهذه النواحي كثيراً.. فكان له حلة حسنة يلبسها في العيدين والجمعة.. وكانت له حلة يلبسـها في اسـتقبال الوفود.. كان يعتني بمظهره ورائحته.. وكان يحب الطيب..

قال (أنس) رضي الله عنه: كان رسـول الله ﷺ.. أزهر اللون كأن عرقه اللؤلؤ.. إذا مشا تكفأ.. وما مسسـت ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسـول الله ﷺ.. ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة النبي ﷺ.. وكانت يده مطيبة كأنما أخرجت من جؤنة عطار.. وكان ﷺ يعرف بريح الطيب إذا أقبل..

وقال (أنس) رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ لا يرد الطيب.. وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً.. كان وجهه مستنيراً كالشمس.. وكان إذا سُرَّ استنار وجهه.. حتى كأن وجهه قطعة قمر..

قال (جابـر بن سمرة): رأيت رسـول الله ﷺ في ليلة مضيئة مقمرة.. فجعلت أنظـر إلى رسـول الله ﷺ وإلى القمـر.. وعليـه ﷺ حلـة حمراء.. فـإذا هو عندي أجمل من القمر..

وكان ﷺ يأمر المسلمين بمراعاة المظهر.. عن (أبي الأحوص) عن أبيه رضي الله عنه.. قال: أتيت النبي ﷺ وعليّ ثوب دون (أي رديء)..

- فقال ﷺ: ألك مال؟
- قلت: نعم..
- قال: من أي المال؟
- قلت: من الإبل والبقر والغنم والخيل والرقيق..
- فقال ﷺ: فإذا آتاك الله مالاً.. فليُرَ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته..

وقال ﷺ: (من أنعم الله عليه نعمة.. فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ.. زائراً في منزلنا فرأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره.. فقال: أما كان يجد هذا ما يُسكّن به شعره؟ ورأى رجلاً آخر وعليه ثياب وسخة فقال: أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه؟.. وقال: من كان له شعر فليكرمه..

وكان يحّرص على حسن السمت.. وجمال الشكل .. واللباس .. وطيب الرائحة.. وكان يردد في الناس قائلاً: إن الله جميل يحب الجمال..[1]

(١) رواه مسلم

الصدق

أذكر أني كنت أراقب على الطلاب يوماً في قاعة الامتحان.. وكان الامتحان يوم خميس.. ومع أن يوم الخميس هو إجازة أصلاً إلا أننا اضطررنا أن نجعل فيه امتحاناً لزحمة المواد الدراسية..

بعد مُضي بضع دقائق من بداية الامتحان.. أقبل أحد الطلاب متأخراً.. كان المسكين يبدو عليه الاضطراب الشديد..

- قلت له: عفواً.. أتيت متأخراً ولن أسمح لك بدخول الامتحان..

فبدأ يرجوني أن أسمح له.. قلت: ما الذي أخرك؟!

- قال: والله يا دكتور.. راحت عليَّ نومة!!
- أعجبني صدقه.. وقلت: تفضل..

فدخل وامتحن.. بعده بدقائق أقبل طالب آخر..

- قلت: ما أخرك؟
- قال: يا دكتور والله الطريق زحححمة.. تعرف أن الناس في الصباح يخرجون جميعاً لأعمالهم.. هذا ذاهب لجامعته.. وهذا لشركته.. وهذا..

وجعل يعدد عليَّ ليقنعني أن الطريق زحمة.. ونسي المسكين أن اليوم إجازة للموظفين.. وربما ليس في الطرق إلا طلابنا!!

- قلت له: يعني الشوارع زحمة.. والسيارات تملأ الطرق؟
- قال: إي والله يا دكتور.. سبحان الله.. كأنك كنت معي!!..

- قلت: يا شاطر!! إذا أردت أن تكذب فاضبط الكذبة.. يا أخي اليوم خميييس.. يعني عطلة ما فيه أعمال.. ولا موظفون.. من أين جاءت الزحمة؟!!
- قال: آه يا دكتور.. نسيت.. «بنشر عليّ الكفر».. أي تعطلت إحدى إطارات السيارة.. فوقفت لإصلاحها..!!

كان المسكين مضطرباً متورطاً.. فضحكت ودخل ليمتحن..

نعم.. ما أقبح أن يكتشف الناس أنك تكذب عليهم.. الكذب ينفر الناس عنك.. ويفقدك المصداقية عندهم.. ويجعلهم لا يثقون فيك.. فلو وقعت لأحدهم مشكلة.. لن يشكوها إليك.. ولو تكلمت بشيء لن يسمعوه بتقبل.. ما أقبح الكذب!!

قال ﷺ: يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب..[١]

وسئل ﷺ.. فقيل له:

- يا رسول الله.. أيكون المؤمن جباناً؟
- فقال: نعم..
- فقيل: أيكون المؤمن بخيلاً؟
- فقال: نعم..
- فقيل: أيكون المؤمن كذاباً؟
- فقال: لا..[٢]

وقال (عبدالله بن عامر) رضي الله عنه: دعتني أمي يوماً.. ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا..

(١) رواه أحمد وأبويعلى ورجاله رجال الصحيح.
(٢) مالك في الموطأ وهو مرسل.

- فقالت: ها.. تعال أعطيك..
- فقال لها رسول الله ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟
- قالت: أعطيه تمراً..
- فقال لها: أما إنك لو لم تعطي شيئاً.. كتبت عليك كذبة..[1]

وكان ﷺ إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة.. لم يزل معرضاً عنه..

في كثير من الأحيان يندفع بعض الناس إلى الكذب.. لأجل إظهار أنفسهم بصورة أكبر من الحقيقة.. فتجده يكذب في بطولات يؤلفها.. ومواقف يخترعها.. أو يزيد في القصص.. ليملِّحها.. أو يدعي أشياء عنده.. وهو كاذب.. فيتشبع بما لم يعط.. أو تجد الكذاب يَعِدُ ويُخْلف.. أو يتورط بأمور.. فيختلق أعذاراً متنوعة.. وسرعان ما يكتشف الناس كذبه فيها..

وقف الإمام (الزهري) أمام السلطان.. فشهد على شيء..

- فقال السلطان: كذبت..
- فصاح (الزهري): أعوذ بالله.. أنا أكذب!! والله لو نادى مناد في السماء: إن الله أحل الكذب.. لما كذبت .. فكيف وهو حرام!!

(١) رواه أبو داود (حسن).

الشجاعة

قال لي بعدما خرجنا من الوليمة:

- تصدق كنت أعرف اسم الصحابي الذي ذكرتم قصته.. ولم تتذكروا اسمه..
- قلت: عجباً!! لماذا لم تذكره!.. وقد رأيتنا متحيرين؟!
- خفض رأسه وقال: خجلت أن أتكلم..

قلت في نفسي: تباً للجُبن..

وآخر كان يدرس معي في السنة الأخيرة من الثانوية.. التقيت به يوماً في ذلك الحين.. فقال لي:

- قبل يومين دخلت الفصل.. فرأيت الطلاب واجمين.. والمدرس جالس على كرسيه.. بدون شرح.. جلست وسألت الذي بجانبي: ما الخبر؟! قال: زميلنا عساف مات البارحة.. رحمه الله.. كان في الفصل عدد من أصدقاء عساف.. تاركون للصلاة.. والغون في عدد من المحرمات.. كان تأثير الخبر عليهم واضحاً.. حدثتني نفسي أن ألقي عليهم كلمة وعظية أحثهم فيها على الصلاة.. وبر الوالدين.. وإصلاح النفس..

- قلت له: ممتاااز.. هل فعلت؟
- قال: بصراحة .. لا .. خجلت..

سكتّ.. وكظمت غيظي وأنا أقول في نفسي:
تباً للجُبن؟!

امرأة تسألها: لماذا لم تصارحي زوجك بالموضوع؟ فتقول: استحي!! خفت أن يتضايق مني!! خفت أن يهجرني.. خفت... تباً للجُبن!

شاب تسأله: لِمَ لم تخبر أباك بالمشكلة قبل أن تتفاقم؟! فيقول: أخاف.. ما أتجرأ.. أو ربما رفع أحدهم ضغطك بقوله: أستحي أن أبتسم.. أخجل أن أثني عليه.. أخاف أن يقول الناس: فلان يجامل.. يستخف دمه..

أسمع هذه التصرفات كثيراً.. فأتمنى أن أصرخ فيهم: يا جبناااء.. إلى متى؟!

الجبان لا يبني مجداً.. هو صفر على الشمال دائماً.. إن حضر مجلساً بجبنه ولم يشارك برأي.. أو ينطق بكلمة.. وإن ذكروا نكتة ضحكوا وعلّقوا.. أما هو فخفض رأسه وتبسم.. وإن حضر اجتماعاً.. لم ينتبه أحد لوجوده.. والأعظم من ذلك إن كان أباً.. أو زوجاً.. أو مديراً.. أو حتى زوجة أو أماً..

الناس يكرهون الجبان.. وليس له قدر.. فعوِّد نفسك على الشجاعة في الإلقاء.. الشجاعة في النصح.. الشجاعة في تطبيق مهارات التعامل مع الناس..

الثبات على المبادئ

كلما كانت شخصية الشخص أقوى.. وثباته على مبادئه أشد.. كان أهمَّ في الحياة.

أحياناً يكون من مبادئك عدمُ أخذ الرشوة.. مهما ملَّحوا أسماءها.. (بخشيش.. هدية.. عمولة...).. فأثبت على مبدئك..

زوجة يكون من مبادئها.. عدمُ الكذب على زوجها.. مهما زيَّنوه لها.. (تمشية حال.. كذب أبيض...).. فلتثبت على مبادئها..

من المبادىء.. عدم تكوين علاقات محرمة مع الجنس الآخر.. عدم شرب الخمر.. شخص لا يدخن .. جلس مع أصحابه.. ليثبُت على مبادئه..

الشخص الثابت على مبادئه وإن انتقدهُ أصحابه أحياناً.. واتهموه بعدم المرونة.. إلا أن مشاعرهم الداخلية تؤمن أنها أمام بطل.. فتجد أن أكثرهم يلجأ إليه عند الشدائد.. أو ليستشيره في مشاكله الشخصية.. ويشعر بأهميته أكثر من غيره..

وليس هذا خاصاً بأحد الجنسين دون الآخر.. بل الرجال والنساء في ذلك سواء.. فاثبت على مبادئك ولا تقدم تنازلات.. عندها سيرضخ الناس لها..

لما ظهر الإسلام في الناس جعلت القبائل تَفِدُ إلى رسول الله ﷺ.. فجاء وفد قبيلة ثقيف وكانوا بضعَةَ عشر رجلاً.. فلما قدموا أنزلهم رسول الله ﷺ المسجد ليسمعوا القرآن.. فسألوه: عن الربا والزنا والخمر؟ فأخبرهم أن ذلك كله حرام..

وكان لهم صنم ورثوا عبادته وتعظيمه عن آبائهم .. اسمه (الربة).. ويصفونه بـ(الطاغية).. وينسجون حوله القصص والحكايات للدلالة على قوته..

فسألوه عن (الربة) ما هو صانع بها؟

- فقال ﷺ دون تردد: اهدموها..
- ففزعوا.. وقالوا: هيهات.. لو تعلم الربة أنك تريد أن تهدمها.. قتلت أهلها!!

وكان (عمر) رضي الله عنه حاضراً.. فعجب من خوفهم من هدم صنم..

- فقال: ويحكم يا معشر ثقيف!! ما أجهلكم!! إنما الرّبة حجر!! لا يضر ولا ينفع..
- فغضبوا.. وقالوا: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب.. فسكت عمر..

فقالوا: نشترط أن تدع لنا الطاغية ثلاث سنين.. ثم تهدمه بعدها إن شئت..

فرأى النبي ﷺ أنهم يساومونه على أمر في العقيدة!! وهي أعظم مبدأ في حياة المسلم.. والتوحيد هو أصل الإسلام..

فما دام أنهم سيسلمون .. فما الداعي للتعلق بالصنم..!!

- فقال ﷺ: لا..
- قالوا: فدعه سنتين.. ثم اهدمه..
- قال: لا..
- قالوا: فدعه سنة واحدة..
- قال: لا..

- قالوا: فدعه شهراً واحداً!!
- قال: لا..

فلما رأوا أنه لم يستجب لهم في ذلك.. علموا أن المسألة مسألة شرك وإيمان.. لا مجال فيها للمفاوضة!!

- قالوا: يا رسول الله.. فتول أنت هدمها.. أما نحن فإنا لن نهدمها أبداً..
- فقال ﷺ: سأبعث إليكم من يكفيكم هدمها..
- فقالوا: والصلاة.. لا نريد أن نصلي.. فإننا نأنف أن تعلو إست الرجل رأسه!!

يعني: لا يرضون لشدة تكبرهم أن تكون مؤخرة أحدهم وقت السجود أعلى من رأسه!!

- فقال ﷺ: أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك.. وأما الصلاة.. فلا خير في دين لا صلاة فيه..!!
- فقالوا: سنؤتيكها.. وإن كانت دناءة..

فكاتبوه على ذلك.. وذهبوا إلى قومهم.. ودعوهم إلى الإسلام.. فأسلموا على مضض..

ثم قدم عليهم رجال من أصحاب رسول الله ﷺ لهدم الصنم.. فيهم (خالد بن الوليد).. و(المغيرة بن شعبة الثقفي)..

فتوجه الصحابة إلى الصنم.. ففزعت (ثقيف).. وخرج الرجال والنساء والصبيان.. وجعلوا يرقبون الصنم.. وقد وقع في قلوبهم أنه لن ينهدم.. وأن الصنم سيمنع نفسه..

فقام (المغيرة بن شعبة).. فأخذ الفأس.. والتفت إلى الصحابة الذين معه وقال: والله لأضحنّكم من ثقيف!!

ثـم أقبل (المغيرة بن شـعبة) إلى الصنم.. فضرب الصنم بالفأس.. ثم سـقط على الأرض وجعل يرفس برجله.. فصاحت (ثقيف).. وارتجوا.. وفرحوا.. وقالوا: أبعد الله المغيرة.. قتلته الربة..

ثم التفتوا إلى بقية الصحابة وقالوا: من شاء منكم فليقترب..

عندها قام (المغيرة) ضاحكاً.. وقال: ويحكم يا معشر ثقيف.. إنما هي لُكاع (أي مزحة).. وهذا صنم.. حجارة ومدر.. فاقبلوا عافية الله واعبدوه..

ثـم أقبل يهدم الصنم.. والناس معـه.. فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً.. حتى سووها بالأرض..

إغراءات

قرأت أن شاباً مسلماً في بريطانيا.. اطلع على إعلان لإحدى الشركات حول حاجتها إلى موظفين يعملون في الحراسات.. أقبل إلى اللجنة المختصة بمقابلة المتقدمين.. فإذا جمع كبير من الشباب.. ما بين مسلمين وغير مسلمين.. وكانوا يدخلون إلى لجنة المقابلة واحداً تلو الآخر.. كلما خرج شخص من المقابلة سأله الواقفون.. عماذا سألوك؟ وبماذا أجبت؟ وكان من أهم أسئلة اللجنة لكل متقدم: كم كأساً تشرب من الخمر يومياً؟! جاء دور صاحبنا.. فدخل.. وتتابعت عليه الأسئلة.. حتى سألوه:

- كم تشرب من الخمر؟

فتردد الشاب.. هل يكذب ويدعي أنه يشرب الخمر كبقية الشباب.. لئلا يقولوا: أنت مسلم متشدد.. أم يصدق ويقول: أنا مسلم والله قد حرم عليَّ الخمر.. فأنا لا أشربها.. بعد تفكير سريع.. عزم على الصدق..

- فقال: أنا لا شرب الخمر..
- قالوا: لماذا!! هل أنت مريض ؟!
- قال: لا .. لكني مسلم.. والخمر حرام..
- قالوا: يعني لا تشربها حتى في عطلة آخر الأسبوع؟!!
- قال: نعم.. لا أشربها أبداً..

فنظر بعضهم إلى بعض متعجبين.. فلما ظهرت النتائج.. فإذا اسمه في أوائل المقبولين.. بدأ عمله معهم.. ومضى عليه أشهر.. وفي يوم لقي أحد المسئولين في تلك المقابلة وسأله:

➤ لماذا كنتم تكررون السؤال عن الخمر؟!

➤ **فقال:** لأن الوظيفة المطلوبة هي في الحراسات.. وكلما توظف فيها شاب.. فوجئنا به يشرب الخمر ويسكر.. فيضيّع مكانه.. ويهجم على الشركة من يسرقها.. فلما وجدناك لا تشرب الخمر عرفنا أننا وقعنا على مبتغانا.. فوظفناك هنا!!

ما أجمل الثبات على المبادىء وإن كثرت الإغراءات.. المشكلة أننا نعيش في مجتمعات قلَّ أن تجد فيها من يتمسك بمبادئه.. يعيش من أجلها ويموت من أجلها.. ويثبت على الالتزام بها.. وإن كثرت الإغراءات..

إذا مشيت على المنهج الصحيح.. والتزمت بالصراط المستقيم.. فأصحاب المبادىء الأخرى لن يتركوك.. فعدم قبولك للرشوة يغضب زملاءك المرتشين.. وامتناعك عن الزنا.. يغضب الفاعلين!!

ذُكر أن (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه كان يعِسّ ليلة من الليالي.. يراقب وينظر.. فمرَّ بأحد البيوت في ظلمة الليل.. فسمع فيه أصوات ضحك وعبث وكأنها أصوات رجال سكارى.. فكره أن يطرق عليهم الباب ليلاً.. وخشي أن يكون ظنه خاطئاً .. وأراد أن يتثبت من الأمر.. فتناول كسرة فحم من على الأرض.. ووضع بها علامة على الباب.. ومضى..

سمع صاحب الدار صوتاً عن الباب.. فخرج.. فرأى العلامة.. ورأى ظهر (عمر) مولياً.. ففهم القصة.. فكان الأصل ان يمسح العلامة وينتهي الأمر.. لكن الرجل لم يفعل ذلك..!! وإنما أخذ كسرة الفحم وأقبل إلى بيوت جيرانه.. وجعل يرسم على أبوابها علامات!! وكأنه يريد أن ينزل الناس إلى مستواه.. ليكونوا سكارى مثله.. ولا يريد أن يرتفع إلى مستواهم..!! وفي المثل: «ودت الزانية لو أن النساء كلهن زنين»..

من التجارب في حياتنا.. أن تجد زوجة كثيرة الكذب على زوجها تربَّت على ذلك.. وتعودت عليه.. فإذا رأت من تنكر عليها.. وتنصحها بالصدق.. حاولت أن تجرها إلى مستنقعها.. فكررت عليها: الرِّجال ما يصلح معهم إلا كذا.. ما تمشي أمورك معه إلا بالكذب.. فلا تزال بها حتى تتنازل عن مبادئها وتتغير.. أو ربما تثبت.. ولعلها...

وقُلْ مثل ذلك في مسئول حسن الخلق مع موظفيه.. ويرى أن هذا مما يفيد العمل.. ويورث الراحة في قلوبهم.. ويزيد الإنتاج.. فيلقاه مسئول سيىء الخلق.. مبغوض من قبل موظيفه.. فيحسده – ربما- أو يريد أن يقنعه بأسلوب آخر في التعامل.. فيقول له: لا تفعل كذا.. وافعل كذا.. ولا تبتسم .. ولا...

أو صاحب بقالة لا يبيع السجائر.. فيأتيه صاحب له وينصحه يبيع السجائر ليزيد كسبه.. ويوسوس عليه ليقنعه بذلك..

فكن بطلاً واثبت على مبادئك.. وقُل بأعلى صوتك: لاااا.. مهما أغروك..

وقديماً حاول الكفار مع رسول الله ﷺ أن يتنازل عن مبادئه.. فقال الله له: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1] .. يعني أن الكفار عباد الأصنام لا مبادىء عندهم أصلاً ليحافظوا عليها.. وبالتالي لا مانع عندهم من التنازل عن مبادئهم.. فانتبه أن يغروك بترك مبادئك..

(١) القلم: ٩

العفو عن الآخرين

لا تخلـو الحياة من عثـرات تُصيبُنا من النـاس.. فهذه مزحـة ثقيلة.. وتلك كلمة نابية.. وتعدٍّ على حاجات شـخصية.. خصومـة بين اثنين في مجلس.. أو اختلاف في وجهات نظر .. أو آراء..

وبعضنا يُكبِّر الموضوع في نفسـه.. وليس عنده استعداد للعفو أو النسيان.. أو ربما يتكبر عن قبول أعذار الآخرين والعفو عنهم..

بعـض الناس يُعذِّب نفسـه بعدم عفـوه.. يملأ صدره بأحقاد تشـغله وتعذبـه.. ولله در الحسـد ما أعدلَـه.. بدأ بصاحبه فقتله.. فلا تُعذِّب نفسـك.. هناك أشياء لا يمكن ان تعاقب عليها..

فكن كبيراً.. انسَ الماضي.. وعش حياتك..

لمـا دخل رسـول الله ﷺ مكة فاتحاً.. واطمـأنَّ الناس.. خرج حتـى جاء الكعبة فطاف بها سـبعاً على راحلته.. فلما قضى طوافه.. دعا (عثمان بن طلحة) فأخذ منه مفتـاح الكعبة.. ففتحت له فدخلها.. فرأى فيهـا صور الملائكة وغيرهم مما كانـت قريش تصوره بجهلها وكفرهـا.. ورأى (إبراهيم) عليه السلام مصوراً في يده الأزلام يستقسم بها.. فقال ﷺ:

قاتلهم الله.. جعلوا شـيخنا يستقسـم بالأزلام!! ما شـأن (إبراهيم) والأزلام؟! مـا كان (إبراهيم) يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسـلماً وما كان من المشركين..

ثم أمر ﷺ بتلك الصور كلها فُطمِست.. ثم وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده.. ثم طرحها.. ثم وقف على باب الكعبة.. وقد اجتمع له كل الناس في المسجد من المسلمين والكفار ينظرون إليه.. ثم صلى ركعتين ثم انصرف إلى زمزم.. فاطلع فيها.. ودعا بماء فشرب منها وتوضأ.. والناس يبتدرون بقايا الماء الذي تبقى من أثر وضوئه.. والمشركون يتعجبون من ذلك.. ويقولون: ما رأينا ملكاً قط ولا سمعنا به مثل هذا..

ثم أقبل إلى مقام (إبراهيم) فأخره عن الكعبة .. وكان مُلصقاً بها.. ثم قام ﷺ على باب الكعبة وجعل ينظر إلى الناس - ويا ليتني كنت معهم - ثم خطب فقال:

لا إله إلا الله.. وحده لا شريك له.. صدق وعده.. ونصر عبده.. وهزم الأحزاب وحده.. ألا كل مأثرة .. أو دم.. أو مال يُدَّعى.. فهو موضوع تحت قدمي هاتين.. إلا سدانة البيت.. وسقاية الحاج..

ثم جعل يقرر بعض الأحكام الشرعية فقال:

ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا.. ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل.. أربعون منها في بطونها أولادها..

ومضى في خطبة مباركة.. ثم نظر - فدته روحي - إلى رؤوس قريش وساداتها .. فصاح بهم:

يا معشر قريش.. إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية.. وتعظّمها بالآباء.. الناس من آدم.. وآدم من تراب.. ثم تلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (١)

(١) الحجرات: ١٣

ثـم جعل يتأمل في وجـوه الكفار.. وهو في قمة عزه وملكـه. عند باب الكعبة.. وهـم في غايـة ذلهـم وضعفهـم.. في مكان طالمـا كذبوه فيـه.. وأهانـوه.. وألقوا الأوساخ على رأسه وهو ساجد.. وكفار قريش اليوم بين يديه.. مهزومين.. أذلاء .. صاغرين.. ثم قال:

- يا معشر قريش .. ما ترون أني فاعل فيكم؟
- فانتفضوا.. وقالوا: تفعل بنا خيراً.. أنت أخ كريم وابن أخ كريم..

عجبـاً!! هل نسـوا ما كانوا يفعلونه بهـذا الأخ الكريم!! أين سـبكم: مجنون.. ساحر.. كاهن؟! ما دام أخاً كريماً.. وأبوه أخ كريم!! فلماذا حاربتموه؟!

أين تعذيبكم للمسـلمين الضعفاء.. هذا بلال واقف.. وآثـار التعذيـب لا تزال في ظهـره.. وتلك نخلـة قريبة قتلـت عندها (سميـة).. وزوجها (ياسـر).. وهـذا ابنهما (عمار) مع المسلمين يشهد.. اليوم تقولون : أخ كريم؟!

ايـن حبسـكم لهـذا النـبي الكريـم مع المسـلمين الضعفاء.. ثلاث سـنين في شـعب بـني (عامر).. حتى أكلوا ورق الشـجر من شـدة الجـوع..؟!! ما رحمتم بكاء الصغير.. ولا أنين الشـيخ الكبير.. ولا حاملاً ولا مرضعـاً!! أيـن حربكم لـه في بدر.. وأحـد وتحزبكم عليه في الخندق؟ واليوم .. هو أخ كريم!!

أين منعكـم له من دخول مكة معتمـراً.. لما جاءكم قبل سنين.. وتركتموه محبوساً في الحديبية.. ممنوعاً من دخـول مكة؟ أيـن صدكم لعمه (أبـي طالب) عن الإسلام وهو على فراش الموت؟ أين..؟ أين..؟

شـريط طوييييل من الذكريات المؤلمة يمر أمام ناظريه ﷺ .. وهو ينظر إلى وجوه كفار قريش بين يديه.. ويقلب طرفه في فجاج الحرم..

وربما امتد بصره إلى جبال مكة حول الحرم.. أو إلى شوارعها وطرقاتها.. ليس هـو فقط.. بل تمر هذه الذكريات أمام ناظري (أبـي بكر) و (عمر).. و(عثمان) و(علي).. و(بلال) و(عمر).. فكل واحد من هؤلاء.. له مع قريش قصة حزينة..

كان ﷺ يسـتطيع أن ينزل بهم أقسـى أنواع العقوبة.. فهم أعداء محاربون.. معتـدون.. خونة.. نعم خونة.. خانوا صلح الحديبية.. واعتدوا.. كانوا مجرمين.. متحيرين.. لا يدرون ماذا سيُفعل بهم..

فإذا بـه ﷺ يدوس على الأحقـاد.. ويُحلّق بهمته عالياً.. ويقول كلمة يهتف بها التاريخ:

➤ اذهبوا.. فأنتم الطلقاء..
اذهبوا.. فأنتم الطلقاء..
اذهبوا.. فأنتم الطلقاء..

فينطلقون.. مستبشرين.. تكاد أرجلهم تطير من الفرح.. أحقاً عفا عنا؟!!

ثم يتلفت ﷺ ينظر حول الكعبة.. فإذا ثلاثمائة وستون صنماً.. تُعبَدُ من دون الله.. عند بيته المعظم..!!

فجعـل ﷺ يضربهـا بيـده الكريمة.. فتهـوي.. وهو يقول: جـاء الحق.. وزهق الباطل.. جاء الحق.. وما يبدئ الباطل وما يعيد..

عـددٌ من كفار قريـش العتاة البغاة.. الذين لهم تاريخ أسـود مع المسـلمين.. فروا من مكة قبل دخول النبي ﷺ وأصحابه إليها..

منهم (صفوان بن أمية).. فإنه فرّ منها هارباً.. وقد تحيّر أين يذهب؟! فمضى إلى (جُدَّة) ليركب منها البحر إلى (اليمن).. فلما رأى الناس عفو رسول الله ﷺ ونسيانه للماضي الأليم.. جاء (عمير بن وهب) إلى رسول الله ﷺ..

➤ فقـال: يـا نبي الله إن (صفوان ابن أمية) سـيد قومه..وقد خـرج هارباً منك.. ليقذف نفسه في البحر.. فأمِّنه.. صلى الله عليك..

- فقال ﷺ بكل بساطة: هو آمن..
- قال عمير: يا رسول الله.. فأعطني آية يعرف بها أمانك..

فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التي دخل فيها مكة.. حتى إذا رآها (صفوان) عرفها فوثق في صدق (عمير)..

خرج بها (عمير) حتى أدركه.. وهو يريد أن يركب في البحر..

- فقال: يا(صفوان).. فداك أبي وأمي.. الله.. الله في نفسك أن تهلكها.. فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به..
- فقال (صفوان): ويحك.. أغْرُب عني فلا تكلمني.. فإنك كذاب..

وكان خائفاً من مغبة ما كان فعله بالمسلمين.. فصاح به (عمير)..

- قال: أي (صفوان).. فداك أبي وأمي.. رسول الله.. أفضل الناس.. وأبرّ الناس.. وأحلم الناس.. وخير الناس.. وهو ابن عمك.. عزُّه عزك.. وشرفُه.. شرفك.. وملكُه ملكك..
- قال (صفوان): إني أخافه على نفسي..
- قال (عمير): هو أحلم من ذاك وأكرم..

فرجع (صفوان) معه.. حتى وصلا إلى مكة.. فمضى به (عمير) حتى وقف به على رسول الله ﷺ.. فقال (صفوان):

- إن هذا يزعم أنك قد أمنتني..
- قال ﷺ: صدق..
- قال (صفوان): أما دخولي في الإسلام.. فاجعلني بالخيار فيه شهرين.. أي: سأبقى في مكة علي دين عبادة الأصنام شهرين.. أفكر خلالها هل أدخل في الإسلام أم لا..

➤ فقال ﷺ: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر..

ثم أسلم (صفوان) بعد ذلك.. رضي الله عنه..

ما أجمل العفو عن الناس.. ونسيان الماضي الأليم.. هذا خُلق بلا شك لا يستطيعه إلا العظماء.. الذين يترفعون بأخلاقهم عن سفالة الانتقام.. والحقد.. وشفاء الغيظ.. فالحياة قصيرة - على كل حال - نعم هي أقصر من أن ندنسها بحقد وضغينة..

حتى في الحاجات الخاصة.. كان ﷺ هيناً ليناً..

قال (المقداد بن الأسود) رضي الله عنه:

قدمت المدينة أنا وصاحبان لي.. فتعرضنا للناس فلم يُضفْنا أحد.. فأتينا إلى النبي ﷺ.. فذكرنا له.. فأضافنا في منزل له وعنده أربع أَعنز..

فقال ﷺ: احلبهن يا (مقداد).. وجزئهن أربعة أجزاء.. وأعطّ كلّ إنسان جزءاً..

قال (المقداد): فكنت أفعل ذلك.

كان (المقداد) كل مساء.. يحلب فيشرب هو وصاحباه.. ويبقى جزء النبي ﷺ.. فإن كان موجوداً شربه.. وإن كان غائباً حفظوه له حتى يرجع..

وفي ليلة من الليالي.. حلب (المقداد) الأعنز كما يفعل كل ليلة.. وقسّم الحليب أربعة أجزاء.. فشرب هو وصاحباه ثلاثة أجزاء.. وأبقوا جزءاً للنبي ﷺ ليشربه عند عودته..

تأخر النبي ﷺ في المجيء إليهم.. واضطجع (المقداد) على فراشه.. فقال في نفسه: إن النبي ﷺ.. قد أتى أهل بيت من الأنصار.. فأطعموه.. فلو قمت فشربت هذه الشربة..

فلم تزل به نفسه حتى قام فشربها.. ولم يبق للنبي ﷺ شيئاً..

قـال المقـداد: فلما دخل في بطني وتقـار.. أخذني ما قدُم وما حـدث.. وندمتُ.. فقلت: يجيء الآن النبي ﷺ جائعاً.. ظمآن.. فلا يرى في القدح شيئاً.. فيدعو عليّ.. فسجيت ثوباً على وجهي.. يعني من الهم..

فلما مضى بعض الليل.. جاء النبي ﷺ.. فسـلم تسـليمة تسمع اليقظان.. ولا توقظ النائم.. و(المقداد) على فراشه.. ينظر إليه..

فأقبل ﷺ إلى إنائه.. فكشف عنه فلم ير شيئاً.. فرفع بصره إلى السماء.. ففزع (المقداد).. وقال: الآن يدعو عليّ.. فتسمّع ماذا يقول..

فإذا به ﷺ.. يدعو قائلاً: اللهم اسق من سقاني.. وأطعم من أطعمني..

فلما سمع (المقداد) ذلك.. قال في نفسه: أَغتنم دعوة النبي ﷺ..

قام فأخذ الشـفرة (السكين).. فدنا إلى الأعنز.. ليذبح إحداها.. ليطعم النبي ﷺ.. فجعل يلْمسـهنَّ ويجسُـهن ينظر أيتهـن أسمن ليذبحها.. فوقعـت يده على ضرع إحداهن هي حافل.. مليئة باللبن.. ونظر إلى الأخرى فإذا هي حافل.. فنظر فإذا هي كلهن حُفّل.. فحلب في إناء كبير.. فملأه حتى علت رغوته.. ثم أتى به النبي ﷺ..

- فقال: اشرب يا رسول الله..
- فلما رأى رسول الله ﷺ كثرة اللبن.. قال: أما شربتم شرابكم الليلة يا (مقداد)؟
- فقال: اشرب يا رسول الله..
- فقال ﷺ: ما الخبر يا (مقداد)؟
- قال: اشرب ثُمَّ الخبر..

فشرب النبي ﷺ ثم ناول القدح للمقداد..

فقال المقداد: اشرب يا رسول الله..

فشرب ثم ناوله القدح.. قال: اشرب يا رسول الله..

قال (المقداد).. فلما عرفت أن رسول الله ﷺ قد روي.. وأصابتني دعوته لما قال: اللهم أطعم من أطعمني واسقِ من سقاني.. ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض..

- فقال رسول الله: إحدى سوآتك يا (مقداد)!
- فقلت: يا رسول الله.. إنك قد أبطأت علينا الليلة.. وكنت جائعاً فقلت في نفسي لعل رسول الله ﷺ قد تعشى عند بعض الأنصار...

وقصَّ عليه القصة كلها.. وكيف أن الأعنز حلبت في ليلة واحدة مرتين.. على غير العادة!!

فتعجّب النبي ﷺ كيف تمتلئ أضرع الأعنز حليباً بهذه السرعة!! فهي لا يمكن أن تحلب مرتين في ليلة واحدة!!

- فقال: ما كانت هذه إلا رحمة الله.. ألا كنت آذنتني- أي أخبرتني قبل أن أشرب- لتوقظ صاحبيك هذين فيصيبان منها..
- فقال المقداد: والذي بعثك بالحق ما أُبالي- أي ما أهتم - إذا أصبتَ الرحمة أنت.. وأصبتُها معك من أصابها بعدنا من الناس..

الكرم

- قال لهم: من سيدكم؟
- قالوا: سيدنا فلان.. على أننا نبخِّله..
- فقال: وأي داء أدوأ من البخل؟!! بل سيدكم الأبيض الجعد فلان..

هكذا جرى النقاش بين إحدى القبائل وبين رسول الله ﷺ لما أسلموا فسألهم عن سيدهم ليقره عليهم بعد إسلامهم أو يغيره.. نعم وأي داء أدوأ من البخل..

ما أقبح البخل وما أعرض الناس عنه.. وما أثقله عليهم.. مساكين البخلاء.. تجد أحدهم لا يكاد يقيم في بيته وليمة لأصحابه يتحبب بها إليهم.. ولا يكاد يهدي هدية.. ولا يكاد يعتني بجمال مظهره.. ولا يهتم بزكاء رائحته.. توفيراً للمال.. ورضاً بالدون..

أما الكريم فهو مفضال على أصحابه.. قريب من أحبابه.. إن أشتاقوا للاجتماع والأنس ففي بيته.. وإن نقص على أحدهم شيء تفضل عليه به.. فيأسر نفوسهم بكرمه.. ويستعبد قلوبهم بإحسانه..

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

وينبغي عند إكرام غيرك أن تكون نيتك حسنة.. للتآلف مع إخوانك المسلمين.. وكسب مودتهم.. والتقرب إلى الله بالإحسان إليهم.. لا لأجل شهرة أو رئاسة أو كسب مديحهم وثنائهم..

قال ﷺ: أول من تسعّر بهم النار ثلاثة.. وذكر منهم رجلاً كان ينفق ليُقال جوّاد.. أي كريم.. فلم يعمل ابتغاء وجه الخالق وإنما ابتغى وجه المخلوق.. رياءً وسمعة..

وإليك الحديث كاملاً:

قال (سفيان): دخلت المدينة.. فإذا أنا برجل قد اجتمع الناس عليه.. فقلت: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة.. فدنوت منه حتى قعدت بين يديه.. وهو يحدث الناس.. فلما سكت وخلا..

- قلت: أنشدك الله.. بحقّ وحقّ... لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ.. وعلمته..
- فقال (أبو هريرة): أفعلُ.. لاحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ.. عقلته وعلمته..

ثم نشغ (أبو هريرة) نشغة (شهق).. فمكث قليلاً.. ثم أفاق.. فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ.. وأنا وهو في هذا البيت.. ليس فيه أحد غيري وغيرُه..

ثم نشغ (أبو هريرة) نشغة أخرى.. فمكث بذلك.. ثم أفاق.. ومسح وجهه.. فقال: أفعل.. لأحدثنك بحديث حدثنيه رسول الله ﷺ.. وأنا وهو في هذا البيت.. ليس فيه أحد غيري وغيرُه..

ثم نشغ (أبو هريرة) نشغة أخرى.. ثم مال خارّاً على وجهه.. وأسندته طويلاً.. ثم أفاق.. فقال: حدثني رسول الله ﷺ:

إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة.. نزل إلى العباد ليقضي بينهم.. وكل أمة جاثية.. فأول من يدعو به: رجل جمع القرآن.. ورجل يُقتل في سبيل الله.. ورجل كثير المال.. فيقول الله للقارئ: ألم أعلّمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا رب.. قال: فماذا عملت فيما علمتَ؟ قال: كنت أقوم به

آنـاء الليل وآناء النهار.. فيقول الله له: كذبـتَ.. وتقول الملائكة له: كذبت.. فيقول الله عز وجل: أردت أن يقال: فلان قارئ.. فقد قيل..

(أي: حصّلـت جـزاءك في الدنيا لأنك مـراءٍ بأعمالك تريد ثنـاء الناس وقد أخذته لأن الناس أثنوا عليك وقالوا: فلان قارئ)..

ويُؤتى بصاحب المال فيقول: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى.. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم.. وأتصدق.. فيقول الله: كذبت.. وتقول الملائكة: كذبت.. ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد.. فقد قيل ذلك..

ويؤتى بالرجل الذي قُتل في سبيل الله.. فيقال له: فيم قُتلت؟ فيقول: أمرتّ بالجهاد في سبيلك.. فقاتلتُ حتى قُتلتُ.. فيقول الله: كذبت.. وتقول الملائكة له: كذبت.. ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء.. فقد قيل ذلك..

قال (أبو هريرة) رضي الله عنه: ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال:

يا (أبا هريرة).. أولئك الثلاثة أول خَلْق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة..[1]

فإذا أحسنت النية في كرمك فأبشر بالخير.. وأولى من تحسـن إليهـم ليحبـوك ويكرموك.. أهـل بيتك.. الأم.. الأب.. الزوجـة.. الأولاد.. ثـم الأقـرب فالأقرب.. ابـدأ بنفسـك ثم بمن تعـول.. وكفـى بالمـرء إثماً أن يضيع من يعول..

ولابد من التفريق بين الكرم والإسراف..

مشـى رجل في شـارع قديم فمرَّ ببيت متهالك.. فإذا فتاة صغيرة قد جلسـت على عتبة الباب بثياب رثة.. وهيئة فقيرة..

➤ فسألها: من أنت؟

(١) رواه الترمذي والحاكم، وهو صحيح.

- **قالت:** أنا ابنة (حاتم الطائي)..
- **فقال:** عجباً!! ابنة (حاتم الطائي) الكريم الجواد.. على هذا الحال؟!!
- **فقالت:** كرمُ أبي صيَّرنا إلى ما ترى!!

والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[1] ..

فالكريم ممدوح.. لكن المسرف مذموم.. لذا نهاك الله عن القبض والبسْط.. وأمرك بالاعتدال.. أمسك العصا من النصف..

ولا تَـكُ فيها مُفْرطاً أو مُفرِّطـــاً ... كلا طرفي قصْد الأمور ذميم

كان رسول الله ﷺ أكرم الناس.. ولم يكن جشعاً ينظر في مصلحة نفسه ولا يلتفت إلى غيره.. كلا..

قال (أبو هريرة) رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو.. إن كنت لأعتمد على الأرض من الجوع.. وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع.. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه من المسجد..

فمرّ (أبو بكر).. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني- أي ليقول لي: اتبعني إلى بيتي-.. فلم يفعل.

ثم مرّ (عمر).. فسألته عن آية من كتاب الله.. ما سألته إلا ليستتبعني.. فمرَّ فلم يفعل..

كان الصحابة في جوع وحاجة شديدة.. فكان إذا جاء لأحدهم ضيف.. ربما لم يجد له ما يطعمه..

(١) الإسراء: ٢٩

ثم مرَّ بي أبو القاسم ﷺ.. فتبسم حين رآني.. وعرف ما في وجهي وما في نفسي..

- ثم قال: أبا هر..
- قلت: لبيك يا رسول الله..
- قال: اِلحقْ..

ومضى.. فاتبعته.. فدخل بيته.. فاستأذن.. فأذن لي.. فدخلت.. فوجد لبناً في قدح.. فقال:

- من أين هذا اللبن؟
- قالوا: أهداه لك فلان.. أو فلانة..
- قال: أبا هر..
- قلت لبيك يا رسول الله..
- قال: اِلحقْ أهل الصفة.. فادعهم لي..

وأهل الصفة أضياف الإسلام.. فهم قوم يدخلون في الإسلام ويتركون ديارهم ويسكنون المدينة.. في المسجد.. لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال.. فكان النبي ﷺ يعطف عليهم.. فإذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً.. وإذا أتته هدية أرسل إليهم.. وأصاب منها وأشركهم فيها..

فساءني ذلك.. وقلت في نفسي: وما هذا اللبن في أهل الصفة!! كنت أحقّ أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها.. فإذا جاءوا.. أمرني فكنت أنا أعطيهم.. وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن.. ولم يكن من طاعة الله.. وطاعة رسوله بدٌّ.. فأتيتهم.. فدعوتهم.. فأقبلوا.. فأذن لهم.. وأخذوا مجالسهم من البيت..

- فقال ﷺ: يا أبا هر..
- قلت: لبيك يا رسول الله..

- قال: خذ.. فأعطهم..

فأخـذت القدح.. فجعلت اعطيه الرجل فيشـرب حتى يـروى.. ثم يرد عليَّ القدح.. فأعطيه الآخر.. فيشـرب حتى يـروى.. ثم يرد عليّ القدح.. فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى.. ثم يرد عليَّ القدح.. حتى انتهيت إلى النبي ﷺ.. وقد روي القوم كلهم.. فأخذ القدح فوضعه على يده.. فنظر إليَّ فتبسم..

- فقال: أبا هر..
- قلت: لبيك يا رسول الله..
- قال: بقيت أنا وأنت؟
- قلت: صدقت يا رسول الله..
- قال: أقعد فاشرب.. فقعدت فشربت.. فقال: اشرب.. فشربت.. فما زال يقول: اشرب..
- حتى قلت: لا.. والذي بعثك بالحق.. ما أجد له مسلكاً..
- قال: فأرني.. فأعطيته القدح.. فحمد الله وسمّى.. وشرب الفضلة..[1]

وللكرم أسرار.. أحياناً لا تتكرم على الشخص مباشرة.. وإنما تتكرم على من يحبهم.. فيحبك..

زارنـي أحد الأصدقـاء يومـاً.. وكان يحمل كيسـاً فيه عدد مـن الحلويات والألعـاب.. أظنها لم تكلفه بضعة ريـالات.. ناولني إياها وقال: هذا للأولاد.. فرح بها الصغار.. وفرحت بها أنا لأنه أشعرني أنه يحب إدخال السرور على أولادي..

كان أحد السـلف عالمـاً.. لكنه كان فقـيراً.. فكان طلابه يهـدون إليه بين فترة وأخرى أنواعاً من الهدايا.. تمر.. دقيق... وكان الطالب إذا أهدى إليه.. لم يزل الشيخ مكرماً له مقبلاً عليه ما دامت هديته باقية.. فإذا انتهت.. رجع إلى طبعه الأول..

(١) رواه البخاري.

فكر أحد طلابه بهدية يحملها إلى الشيخ.. تكون معقولة الثمن.. وتطول مدى بقائها.. فأهدى إليه كيس ملح.. فالملح ثمنه قليل.. ويطول بقاؤه في البيت لأنه لا يستعمل منه إلا الشيء اليسير.. فقد يكفي الكيس الواحد لمدة سنة أو سنتين..

ولو استشرتني في هديتين ستهدي إحداهما إلى صديق.. أولاهما زجاجة عطر رائع.. ثمين.. أو ساعة حائطية تكتب عليها إهداء باسمه.. لاخترت الساعة.. لأنها يطول بقاؤها.. ويراها دائماً.. وربما يكون ثمنها أقل..

أذكر أن أحد طلابي أهديته ساعة حائطية فيها إهداء باسمه.. تخرّج من الكلية.. ومرت السنين.. ثم زرت إحدى المدن لإلقاء محاضرة فتفاجأت به يحضُر المحاضرة ويدعوني إلى بيته.. فلما دخلت مجلس الضيوف فإذا به يشير إلى الساعة المعلقة على الحائط.. ويقول: هذه أغلى هدية عندي.. وقد مرَّ على تخرجه سبع سنين..

بقي أن تعلم أن هذه الساعة لم تكلف إلا شيئاً يسيراً.. لكن قيمتها المعنوية أعلى وأكبر..

كف الأذى

كان النـاس يبغضونه.. ما يكاد أحد يسـلم من أذاه.. إن سَـلِمْتَ من يده فلن تسـلم من لسانه.. وإن فاته أن يجلدك بسـوط لسانه في حضرتك فلن يفوته أن يجلدك في غيبتك.. فعلاً.. كان رجلاً مكروهاً.. أثقل على الناس من صُمّ الجبال الراسيات..

وإذا تأملـت أحوال الناس فسـوف تصـل إلى يقين بأنه لا يـؤذي غالباً إلا من كان عنده نعمة تفوق من يقابله..

فالقوي يتجرأ على إيـذاء الضعيف.. يدفعه بيـده.. أو يركلـه برجلـه.. يضـرب ويحقّـر.. فيصير أسداً عليه لكنه في الحروب نعامة!!

والغـني يتعـدى علـى الفقـير.. فيهينـه في المجالس.. يقاطعه في كلامه..

أما صاحب المنصب والجاه.. فله حظ كبير من ذلك.. وقُلْ مثل ذلك فيمن جعل الله نسبه رفيعاً..

وهـؤلاء في الحقيقة.. إضافـة إلى بُغْض الناس لهم.. وتمنيهـم زوال عزهم.. وفرحهم بمصائبهم.. هم أيضاً مفلسـون.. وانظر إلى رسـول الله ﷺ.. وقد جلس مع أصحابه يوماً..

- فقال لهم: أتدرون من المفلس؟
- قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع..

➤ فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة.. وصيام.. وزكاة.. ويأتي قد شتم هذا.. وقذف هذا.. وأكل مال هذا.. وسفك دم هذا.. وضرب هذا.. فيُعطى هذا من حسناته.. وهذا من حسناته.. فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه.. أخذ من خطاياهم فطرحت عليه.. ثم طرح في النار..[١]

لذا كان يتجنب ﷺ أذى الناس بشتى أشكاله.. قالت (عائشة) - رضي الله عنها -: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده.. ولا امرأة.. ولا خادماً.. إلا أن يجاهد في سبيل الله.. وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه.. إلا أن ينتهك شيء من محارم الله.. فينتقم لله عز وجل..[٢]

وعموماً.. من استعمل هذه النعم لأذى الناس أبغضوه.. وقد يبتليه الله في دنياه قبل أخراه.. فيشفي صدورهم..

أذكر أن أحد الاصدقاء من طلبة العلم وحفظة القرآن.. كان رجلاً صالحاً.. يأتيه بعض الناس أحياناً يقرأ عليهم شيئاً من القرآن كرقية شرعية.. وقد شفى الله تعالى على يده من شاء..

دخل عليه يوماً من الأيام رجل تبدو عليه علامات الثراء.. جلس بين يدي الشيخ وقال: يا شيخ.. أنا عندي آلام في يدي اليسرى تكاد تقتلني.. لا أنام في ليل.. ولا أرتاح في نهار.. ذهبت إلى عدد كبير من الأطباء.. أجروا لي الفحوصات.. عملوا تماريين.. فما وجدت فائدة أبداً.. الألم يزيد ويشتد حتى انقلبت حياتي عذاباً.. يا شيخ.. أنا تاجر وعندي عدد من المؤسسات والشركات.. فأخشى أن أكون أُصِبت بعين حاسدة.. أو وضع لي أحد الأشرار سحراً..

قال الشيخ: قرأت عليه سورة الفاتحة.. وآية الكرسي.. وسورة الإخلاص والمعوذتين.. لم يظهر عليه تأثر!! خرج من عندي شاكراً..

رجع إليّ بعد أيام يشكو الألم نفسه.. قرأت عليه.. ذهب ورجع.. وقرأت عليه.. لم يظهر عليه أي تحسن..

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

قلت له لما أشتد عليه الألم: قد يكون ما أصابك هو عقوبة على شيء فعلته.. من ظلم أحد الضعفاء.. أو أكل حقوقهم.. أو ظلمت أحداً في ماله فمنعته حقه.. أو غير ذلك.. فإن كان هناك شيء من ذلك فسارع إلى التوبة مما جنيت.. وأعد الحقوق إلى أهلها.. واستغفر الله مما مضى..

➤ التاجر لم يرق له كلامي.. وقال -بكبر-: أبداً.. ما ظلمت أحداً.. ولم أعتدِ على شيء من حقوق الناس.. وأشكرك على نصيحتك..

وخرج.. مرت أيام وغاب الرجل عني.. خشيت أن يكون وجد عليّ في نفسه.. ولكن لا علي فهي نصيحة أسديتها إليه..

تفاجأت به يوماً في مكان ما.. لقيني فأقبل إليّ مُسلماً مسروراً..

➤ سألته: هاه.. ما الأخبار؟

➤ قال: الحمد لله.. الآن يدي بخير.. بِغْير طِب ولا علاج!!

➤ قلت: كيف؟

➤ قال: لما خرجت من عندك.. جعلت أفكر في نصيحتك.. وأستعيد شريط ذكرياتي في ذهني.. وأفكر!! ترى هل ظلمت أحداً؟! هل أكلت حق أحد؟! فتذكرت أني قبل سنوات لما كنت أبني قصري.. كان بجانبه أرض رغبت في ضمها إليه ليكون أجمل.. كانت الأرض ملكاً لامرأة أرملة توفي زوجها وخلَّف أيتاماً.. أردتها أن تبيع الأرض فأبت.. وقالت: وماذا أفعل بقيمة الأرض.. بل تبقى لهؤلاء الأيتام حتى يكبروا.. أخشى أن أبيعها ويتشتت المال.. أرسلت إليها مراراً لشرائها.. وهي تأبى عليّ ذلك..

➤ قلت: فماذا فعلت؟

➤ قال: انتزعت الأرض منها بطرقي الخاصة..

➤ قلت: طرقك الخاصة!!

- قال: نعم.. علاقاتي الواسعة.. ومعارفي.. استخرجت ترخيصاً ببناء الأرض وضممتها إلى أرضي..
- قلت: وأم الأيتام؟!!
- قال: سمعت بما حصل لأرضها فكانت تأتي وتصرخ بالعمال الذين يعملون لتمنعهم من البناء.. وهم يضحكون منها يظنونها مجنونة.. وفي الواقع أنني أنا المجنون ليس هي..

كانت تبكي وترفع يديها إلى السماء.. هذا ما رأيته بعيني.. ولعل دعاءها في ظلمة الليل كان أعظم..

- قلت: هاه.. أكمل..
- قال: رحت أسال وأبحث عنها.. حتى عثرت عليها.. فبكيتُ واعتذرتُ.. ولا زلتُ بها حتى قبلت مني تعويضاً عن تلك الأرض.. ودعت لي وسامحتني.. فوالله ما إن خفضت يديها.. حتى دبّت العافية في بدني..

ثم أطرق التاجر برأسه قليلاً.. ثم رفعه وقال: ونفعني دعاؤها -بإذن الله- نفعاً عجز عنه طب الأطباء..